ونظر إلى اللاشيء في الفضاء ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتني في المدح غير أولى النُّهى أو صادق[1] أو شوق أو مطران

ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، أنظر إلى فوق ؛ فنظر ، ثم قال انظر إلى تحت ؛ فنظر ثم سكت

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فان الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا . ش . أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقاني في الندىّ وانصرفت

قال ا . ش وهو يُنبِّئني : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافعي) رجل عَسُوفٌ ظالم لأني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة) ... وأجمع نفسي لها ، وأجهدُ في بيانها ، وأذيب عقلي فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلَها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها الى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين[2] ...

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات الى المجلة فتقبض فيها الذهب ، قال : إن هناك أسراراً أنا مُخْصِيها وكاتمها ، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فانها أسرار ... قال له : فدع (الرافعي) واكتب لي أنا هذه المقالات وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبَين لا قرشين

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعي كلامَه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان في العشيّة الى الندىّ

(لها بقية)

إلى الأستاذ ح . ع في بغداد : سرني كتاب الصديق الكريم ، ولكن ما قصة الحجر الأخضر الذي يشبه الزمرد ؟ الرافعي

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين . . .

(٢) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعي أنه هو الذي يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيرا فجعلها عشرين قرشاً .....؟..

١ ـ الصقالبة في الرواية العربية
وفي الدولة الأندلسية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يعن العرب في فتوحاتهم الأولى بتعيين الأمم والأجناس الأجنبية تعييناً واضحا ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ في الرواية الاسلامية صفة التعميم الغامض ، فنجد كلمات « الأعاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتعيينها إلا على ضوء الحوادث والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق في الرواية الاسلامية الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقية (الدولة البيزنطية) اليونانيين وأحيانا على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التي كانت تعيش يومئذ في غرب أوروبا وفي وسطها ؛ ولم تعن الرواية الاسلامية بالتصنيف والتحديد في هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجري ، وفي القرن الرابع نجد هذا التصنيف القومي أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى ، فنجد الرواية الاسلامية تحدثنا عن الفرنج واللمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة ، وعن انكبردية (بلاد اللومبارد) وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم في تصنيف الأجناس والأمم يرجع الى تقدم بماثل في الجغرافية الاسلامية ، والى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسية والتجارية بين الأمم الاسلامية والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبة » من أغمض الكلمات التي أطلقت في الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض في تعريف البلغان والأمم الصقلبية ، فهي تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛

وبعبارة أخرى هي الأمم التي تعرف اليوم بالأمم « السلافية » أو السلافونية « Slavs ; Slavoniens » . ولكن كلمة « الصقالبة » في الرواية الاسلامية كانت بعيدة جدا عن أن تشمل مثل هذا التصنيف الواسع ، ومع أننا نراها مستعملة في الرواية الاسلامية منذ القرن الثاني للهجرة ، فانها لبثت دائما لفظاً غامضا متباين المعنى . فمثلا يستعملها البلاذري ، وهو من أقدم رواة الفتوح الاسلامية في أكثر من مناسبة ؛ فيقول لنا إن المنصور « نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من الصيصة وكان مروان أسكنهم إياها [1] » ؛ ومن الصعب أن نضبط المعنى الذي ينصرف اليه لفظ « الصقالبة » في هذا العصر المتقدم . بيد أنه يلوح لنا أن الكلمة كانت تطلق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما اليها ، ثم اتسع معناها نوعا وأطلقت على سكان البلقان المتاخمين للدولة البيزنطية مثل البلغار ؛ وقد كان الصقالبة في الواقع يستعمرون هذه الأنحاء في تلك العصور ، وكانت لهم في بلغاريا مملكة « صقلبية » حقيقية . وكان معنى الكلمة أوضح وأدق في الغرب الاسلامي ، في الأندلس وصقلية والمغرب ، حيث كانت تطلق على الأجناس الصقلبية الحقيقية التي تسكن حوض الدانوب الشرقي والأوسط وألمانيا وضفاف الادرياتيك ، ويؤتى منها الى الأندلس وللمغرب بالخصيان والأسرى [2] ؛ ويعرف الشريف الادريسي بلاد الصقالبة بأنها هي شبه جزيرة البلقان ، وهو في الواقع معنى أقدم من عصر الادريسي ، بيد أن الادريسي يشير على ما يظهر الى التحديد السياسي حيث كانت مملكة الصقالبة (بلغاريا) تمتد يومئذ بلاد البلقان [3]

وعرف الصقالبة وعرفتهم القصور الاسلامية في عصر مبكر جدا ، فمنذ الدولة الأموية نجدهم في بلاط الخليفة وفي الجيش ؛ ولكن نفوذهم الحقيقي في القصور الاسلامية يبدأ منذ القرن الرابع الهجري ، فنراهم عندئذ يتقلبون في الوظائف والمهام العليا بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى في البلاط وداخل القصر ، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون المنزلية المحضة كشؤون المائدة والثياب والرياش ، ونراهم يتسيطرون على شؤون الدولة العليا ، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم في القصر وفي الحكومة . وقد كان هذا النفوذ يرجع في الغالب الى سياسة الدول والأمر ، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية ؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم في الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيما نفوذ

— ٢ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ؛ وكانت الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام الدولة الأموية في الأندلس ، والخطوب والثورات الجمة التي تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، هي التي حملته على الاستراحة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالي الذين آزروه وقت المحنة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته [1] ؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التي كانت تتقاسم السلطان والنفوذ قبل قيام الدولة الأموية ؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة في البلاط الأندلسي في عهد الحكم المستنصر حفيد عبد الرحمن الداخل (١٨٨ ـ ٢٠٦ هـ) ؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموي في عصره بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف [2] وأخذ نفوذ أولئك الصقالبة يقوى شيئاً فشيئاً داخل القصر والبطانة . بيد أنه لبث مدى حين بعيدا عن شؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص

وفي عهد الناصر قوى نفوذ الصقالبة وازدهر ؛ وكان الناصر يجري على سنة سلفه عبد الرحمن الداخل في الاستراحة بالقبائل

(١) فتوح البلدان ـ مصر ـ ص ١٢٠ (٢) ويرى البعض أن كلمة صقالبة العربية مشتقة في الأصل من كلمة Esclave الافرنجية (الفرنسية) ومعناها الرقيق والأسير (راجع رينو Invasions des Sarrazins en France ص ٢٣٧ والراجع) (٣) قارن المستشرق بارتولد Ency. de l'Islam: Slaves:

(١) راجع نفح الطيب ـ مصر ـ ج ١ ص ١٠٦ (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨

العربية ذات العصبيـة والبأس وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ وكان ممن أفى الاستئثار بالسلطة حتى لقد ألغى وظيفة الحاجب ، وجمع مقاليـد الحكم كلها فى يده ؛ وعهد بالمناصب الـكبيرة الى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ؛ وهم رجال لا إرادة لهم بوجههم كيفما شاء ؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ ما لا يوليه سواهم [1]

ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيق فى بلاط قرطبة . وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية الحقيقية ؛ ولـكنها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخـدمون فى البطانة وفى الجيش ؛ ولما استحكم نفوذ الصقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والقصر ، أضحت الـكلمة تطلق منـذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافى [2] وقد انتهت الينا عن صقالبة الأندلس فى هذا العصر رواية شـاهد عيان هو الرحالة البغدادى ابن حوقل الذى زار قرطبة والزهراء فى أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد ابنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم فى رحلته ما يأتى :

« وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والمغرب ، وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبى فرنجة وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجـه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ؛ وجميع ما يسبى الى خراسـان من الصقالبة فباق على حالته ، ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابذنده يشـق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وأفرنجة وانكبرده وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الـكثير باق على حاله » [3] ، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجا من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجـة) واللومبارديين (اهل انكبردة) والايطاليين (من قلوريه) وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وتحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض ؛ وكانت الـكنيسة تقاوم هـذه التجارة المثيرة وتحرمها ؛ بيد أنها كانت تجرى فى رومة عاصمة النصرانية ذاتها ؛ وفى معظم الثغور الايطالية . وكانت الحرب مصدرا آخر لجلب هؤلاء الصقالبة ، ففى كثير من الغزوات الاسلامية المنظمة لأمم النصرانية ؛ وفى الحملات والغزوات البحرية الناهبـة كان المسلمون يغنمون كثيراً من السبى والأسرى صغارا وكبارا ، ومنهم الصقالبة الذين يخـدمون جنداً مرتزقة فى معظم الجيوش النصرانية ؛ هذا عـدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والعواصم الاسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة [1] وكان الصقالبة يختارون فى الغالب أطفالا من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الاسـلام ؛ وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الـكتب والقصائد ، وبلغوا فى عهد الناصر قسـطا وافرا من السلطان والنفوذ ، واحـتلوا الوظائف الـكبرى فى القصر وفى الادارة والجيش ، وأحرزوا الضـياع والأموال الوفيرة ؛ وفاق عددهم فى عهد النـاصر أى عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئـذ فى القصر والبطانة بثـلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى ستة آلاف وثمانين ، وفى رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ؛ وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخـلافى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم [2] بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجـدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل وددى صاحب الشرطة ؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص [3]

(١) Dozy : Hist des Musulmans d'Espagne ; II P 153

(٢) Lévy - Provencal : Ency de l'Islam - Slaves

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥

(١) راجع ريبو ـ الـكتاب المشار اليه ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩

(٢) Dozy ; idib ; II p. 153 ـ وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ ـ ونفح الطيب ج ٦ ص ١٧٠